فوست العصرية

او يوم في سعة الشيطان

لرمزيه عبد الغني البني

شخصية فوست من الشخصيات الحية التي عالجها المفكرون في غير عصر واحد فالشاعر الانجليزي مارلو Marlowe منافس شكسبير كتب في القرن السادس عشر مأساة فوست فلبثت حيناً من الدهر تتلى على الناس حتى نشأ الشاعر الالماني العظيم (جيتي) مأساتهُ فجرّت عليها ذيل النسيان. وليست شخصية فوست وليدة الخيال من خلق شاعر بذاته ولكنها شخصية انسان ولد وعاش في القرن السادس عشر وما هو الا جان فوست الذي تلقى دروسهُ في جامعة هيدلبرج ثم ولع بعلوم السحر فتعلمها وعمل بها (ومع اعتراقي بأن المأساة التي وضعها جيتي الفيلسوف قد كفل لها الخلود وان اليد التي اسداها المترجم الفاضل الدكتور محمد عوض محمد للناطقين بالضاد تذكر فتشكر وتغبط ولا تغط الا ان فيها تعقيداً وابهاماً وتفككاً وانقساماً وأدباً جافاً ينفر القارىء ولا يستهويه) ولكن الصورة الجديدة التي يقدمها في لباقة الكاتب الفرنسي المعاصر جان بيتجنان في ثوب قصصي أخاذ مع تصوير قوي خلاب وأدب عذب مساغ يجعل في القصة — بله ما حوت من موضوع فلسفي جدير بالدرس قصصاً عذباً محبباً الى النفس وجمالاً فنياً يستهوي الحس ويكفل للقارىء لذة ليس وراءها لذة ومتاعاً ليس يشبههُ متاع

وليس فوست الا الانسان الذي يجد ويبحث في ظلمات هذا الكون يؤمهُ الشك ويغشى في أثره القلق لانهُ عاجز عن ان يكشف الغطاء عن سرّ حظه المقسوم، والذي ان حاولت ان تضله الانانية أو يغشيه الكبرياء عصمهُ الحب وحماه الايمان

برهم في صحبة الشيطان (١)

— ١ —

انتصف الليل او كاد . والفيلسوف (فاوست) لم يزل يتلو في أسفاره على نور مصباح ضئيل وكان من دأبه ألاَّ يجنح الى النوم قبلما ينصرم من عمر الليل نصفهُ . وبغتة طرق الباب طارق . فكف الفيلسوف عن القراءة ونبث برهة ينظر ناحية الباب ... ثم نهض وأقفاء ومشى متثاقلاً ولما فتح الباب صاح صيحة دَهَش (البرابت ! ماذا حدث يا ابنتي حتى طرقت مسكني في هذه الساعة المتأخرة من الليل ؟)

أجابت الفتاة بصوت منخفض (آه أيها السيد . أبي . ملاذي الوحيد تحتضر . ليس لنا أمل الاَّ فيك . اذهب معي بربك ورد اليها الحياة) . وبكت الفتاة في حرقة فأخذت الشيخ عليها رقة ورحمة ... لقد حصد الطاعون الانس كما تحصد المناجل سنابل القمح أسر الفيلسوف الى نفسه (مسكينة البرابت . انها كبيرة الايمان بعلمي . فأنى لي ان اصارحها بأن رأس مالي العلمي وهمي مزعوم وانني كأجهل مخلوق نفثتهُ الغابة

(عاجز وابن عاجز وذو لب في العاجزين عريق)

وألحت الفتاة على الشيخ وقد تباطأ وهوت على يديه فقبلتهما .. (لسنا ذوي سعة أيها السيد ولكننا نستطيع ان ندفع لك ثمن الدواء)

ومدت اليهِ يدها بدراهم معدودات كانت الصبابة الباقية من مال أبيها الفقير

فقال لها الشيخ (بل احفظي عليها دراهمك فليس لدوائي ثمن وما أنا بمتخذ عليهِ أجراً)

وعاد فاوست المريضة في كوخها وقد حمل معهُ قنينة دواء ... وتقدم منها فرفع رأسها بيد ترعشها الشيخوخة والخوف . وأدنى من شفتيها كأس الدواء ، وفتحت المسكينة عينيها في شوق ولما أبصرت الفيلسوف تجرعت الكأس التي قدمها اليها في ثقة وأمل

ومضت دقائق . وفاوست يرمق المرأة في صمت وقلب البرابت يعلو ويهبط وبغتة استوت الام في فراشها الاَّ قليلاً وارسلت أنة عالية تمزق لها قلب ابنتها ودل اتساع عينها والتواء ثغرها على ما كانت تعانيه من ألم . ومشت الرعدة في جسمها فسكتت لحظة . ثم هوت رأسها على وسادتها في عنف . وأسلمت الروح ! . وطفقت الفتاة البتينة تصرخ كأن أفعى لدغتها . وتراجع فاوست في ذُعر . ورمى بالقنينة وانسلّ من المكان عجلاً ، كمن أتى أمراً إدًّا !

ولما آب الى كنه ارتمى على مقعده يلهث من التعب .. وتمتم قائلاً

(لو رد دوائي اليها الحياة لما استطعت أن أقول لماذا ... وقد قضى عليها وما أدري السبب

(١) مقتبسة عن رواية فاوست التي وضعها الكاتب الفرنسي المعاصر جان بتيتجنان Petitbugneuin

وهكذا ظهر لي أن ما كُنتُ أدعيه من علم باطل لا محالة. فيالي من أحمق! لقد أصبت شبابي بين دفات هذه الكتب. وكان في مقدوري ان اتذوق لذائذ الحياة وتمتعها. وضحك الفيلسوف ضحكة مرة

(أهذه دنياي؟ تل من ورق! وحزمة من أقلام! وقنان من حبر! وقنان من سم!

بدلاً من أن انشد الحقيقة في الطبيعة نفسها. في مروج خضراء الجلباب، ورياض مزدهرات رحاب، وجنات من نخيل واعناب، وأشهد الحيال في الشتاء مشتعلات الرؤوس، وأنعم بالشموس وليدات يدللهن الفجر، وعذراوات يغازلهن الضحى، وبالاطيار غريدات على اغصان الشجر، واخطر في هدأة الليل على شطآن النهر، أشهدها راقصات على انغام القمر، وأنعم في طلاقة ورحب بنسائم الربيع العلائل، محملات بأريج متضوع، انفاساً زكية تصاعدت من القلوب الشاعرة العاشقة فاعتصرتها الأزهار واختزنتها زماناً، حتى اذا تفتحت أكمامها نشرتها في الربى عطراً. . . وبدلاً من أن أنشدها في الانسان. في صداقة الرجل. في حب المرأة، أخدع نفسي فأضلها بين هذه الأسفار التي كتبها أناس حمقى ليقرأها أناس أشد حمقاً

فإلى النار! إلى النار! لقد كنتُ أبحث في سطورك لعلي أكشف سراً وها هو ذا السر

(لا يدفيء الغرور الا نار مستعرة ولا يطفيء غلة القلب الا كأس حب)

— ٢ —

ملأ الطاعون المقابر بضحاياه. وفي الليل الغامض كنتَ ترى شبحاً غامضاً كالليل. يروح ويغدو. ويقبل ويدبر. كان طويلاً أقرب شيء الى النحول. محدودباً قليلاً. ولكن أكان هذا طيفاً؟ أم كان هذا بشراً؟. سمع وفاوست يقول:

(إليّ. إليّ أيتها الأنفس المتمردة التي لم يحامرك الدم ولا استهواك المتاب، قبل أن تجنح شمس الحياة الى الإياب. . سيكون الليلة عيد في الجحيم). ومال الى جدث مفتوح وقال:

(هو تذا يا عازر أيها الشيخ البخيل. لقد عشت حريصاً على درهمك حرص الجبان على دمه. فهل عصمتك كنوزك من الفناء. ألم تمت كأحقر شحاذ؟) أجابته صيحة وسمع أنيناً يتصاعد من قبل الجدث. واتجه الشيطان شطر قبر آخر

(وأنت أيها العالم (شويلر) ما الذي جنيتهُ من خدمة الحق والفضيلة والنور؟ حاولت نصف قرن أن تنجو من الخطيئة وان تعيش وفق نصوص الكتاب ولكنني باغتك على حين غرة منك فلحقك الاثم فمنذ ما فتك الطاعون بامرأتك وفلذات كبدك شككت في عدل الله. ها. . ها. . ها! فرصة ذهبية لم أدعها تفلت مني. خدمتك. أثرتك وملأتك غيظاً ويأساً. لا تجادل. . . والى الجحيم! »

وتسمع الشيطان فلم يسمع شيئاً ولكنهُ رفع رأسه قلقاً إذ خيّل اليه أنهُ يرى طاووس

الملائكة يصوّب اليه سهماً من نور وان ارتج تحمل اليه صوتاً يقول (ليست هذه النفس لك يا إبليس ولا أنفس كثيرة مثلها وليس في طوقك يا غرور ان تحكم عليها فقد قضى الله فيها بالقسط فنجت من السعير) . قال إبليس : (إنك تحاول إساءة سلطتك ، وتحاول مغالبتي بلاغتك لقد مات الاستاذ (شويلز) دون توبة فهو لي)

— لا . بل لك الأرواح التي ترامى أصحابها في احضانك ، واشتروا ضلالك رضاة غير مقتسرين وليست تلك التي باغتها سكرى من اليأس فأسقطتها في حبائلك —

— لا تذد عمن أغويت من البشر . فما كانوا بناجين لولا فضولك

— كلاّ . فما لك من حق على رجل لم تلوث روحه أدران الشرك ، ولا شابت ايمانه ذبذبة الافك لئن استحوذت على نفسه الامارة بالسوء . فلقد ظل قلبه في اعتصامه بالله يسبح لهُ

— ذرني أفعل وسترى

— لك هذا ما دمت حيّاً . هل تعرف الدكتور فاوست ؟

— الشيخ المتهدم الذي أضاع زهرة شبابه بين القرطاس والقلم ، باحثاً عن الحقيقة ؟ أكبر ظني أنهُ قد هيّأ نفسه لطاعتي ! لكن اسمع فسوف ما يشتري فاوست الحياة التي اصطفيها لهُ تكون روحه ملكاً لي

— ليكن . اذهب وغامر !

— ٣ —

لقي إبليس فاوست فجاءه وتحدث اليه حديثاً كلهُ منطق وكلهُ إغراء وفاوست بين هازىء مرّة وغاضب أخرى . ولما رأى إعراض الفيلسوف عنهُ وتبرمه بحديثه لجأ الى وسيلة اخرى فأخرج من جيبه مرآة سحرية وقدمها لهُ وهو يقول انظر ! وانحنى فاوست وكم كانت دهشته حين رأى نفسه شابّاً في سن العشرين يفيض صحة وجمالاً ورأى خلف المرآة فتاة شقراء تبتسم لهُ في سذاجة وطُهر فرفع بصره عن المرآة وصاح ساخطاً

— كفى أخيلة وأباطيل . اما ان تريني حقائق ملموسة واما ان تدعني استريح

— اتدعوني رجل اخيلة واباطيل . اني امنحك كل ما في الحياة من لذة ومتاع

— حذار ! فانا لا ألتذ اللذة وحدها . اريد ان اشعر بكل شيء وان اجمع العالم كله في صدري مسراته وأحزانه ، اريد اللذة يمازجها الالم ، والالم يصاحبهُ الامل ، ولكنني لا أطيق الضجر والملل !

— فلسفة خاطئة . تزعم انك تمقت الخيال وها تتذا تنشده . فأينا رجل اخيلة ؟ مالك والعالم . فكّر في نفسك . الشباب . الجمال . الغنى . المجد . اني أهبك هذا كله

— يخيّل اليّ انك تبيعني هذا كسلعة فكم تبغي ثمناً لها ؟

— تعويض عادل لا أغبنك فيه ولا تغبني . اكون خادمك وعذيرك في الحياة الأولى وتكون انت خادمي وعذيري في الحياة الاخرى

وأخرج ابليس عقداً مسطوراً ودعا فاوست لامضائه وتردد الفيلسوف اول الامر فقال لهُ الشيطان وهو باسم

— لاشيء . سأرد اليك شبابك النفيس دون شرط ولتكون هذه تجربة تبدأ الساعة وتنتهي في مثل هذه الساعة من غد فاذا انقضت فترة العقد عُدتَ كما انت

واذا راقتك التجربة ورغبت في شباب مقيم حق عليك ان تمضي هنا بدمك

وسقاه شراباً سرى في جسمه مشتعلاً كالنار وفي لمحة انمحت من حياة الفيلسوف اربعون حجة فعاد ابن عشرين ربيعاً

— ٤ —

رأى فاوست وهو عن كثب من الكنيسة فتاة عذراء في جمال البدر . وسذاجة الطفل فأحبها . كانت تشبه الزابت وكانت تشبه في الوقت نفسه ذلك الطيف الذي رآه خلف مرآة الشيطان غير ان الفتاة الحية لم تأبه لهُ ولم تكترث وكانت تمشي في طريقها على استحياء . لاتكلم الناس ولا ترنو اليهم . وشكا فاوست امره الى ابليس فاصطنع لهُ امرأة عجوزاً تعبث بعقل الفتاة فالتقت بها عن قصد . وتملقها وتحدثت اليها عن آمال الشباب واحلامه . وعن فاوست الفاتن الجميل . ووصفت لها قامته ، ورشاقته ، ورخامة صوته ، وصفاء ابتسامته ، ودعتها لصداقته وهيأت لهما لقاء في مكان شاغر خلف الجبل . واستسلمت مرغريت لفتانا روحاً وجسداً فعبث بها ، وحضرها الشيطان في ليلة مقمرة فاستشهد عفافها . . .

وارتاب فالنتين في سلوك اخته فبات يحرسها بعين لاتغمض ، وخشيت مرغريت مغبة عملها فلبثت في الدار ثمانية ايام وسبع ليال . وتحرّق فاوست شوقاً اليها وكاشف الشيطان بشوقه فاصطحبهُ الى دارها . ومرا بالدار فتواريا خلف دوحة مورقة وطفق الشيطان يغني في لهفة مغرية مسموعة . وسمعهُ فالنتين فلم يطق صبراً فخرج الى الخلاء شاهراً سيفه يلعن ويسب ويهدد ويتوعد ولمحهُ ابليس فاختفى ووجد فاوست نفسه امام خصم لاقبل لهُ على اتقائه ولاطوق لهُ على الفرار منهُ . فتصدى لهُ وأخذ يذود عن نفسه . وباغت الشيطان فالنتين بطعنة في ظهره سقط على أثرها يتخبط في دمه وذعر فاوست وجد في مكانه جمود الصنم في هيكله وابليس يصيح في السُّبُل . القاتل ! القاتل ! وافاق فاوست من ذهوله فأطلق لساقيه الريح واستتر في بُرْدة الليل ! . وقضت مرغريت ليلة مشئومة لم يشاركها في حزنها احد

لقد ماتت امها وقتل اخوها وطائفها واختفى عشيقها ولا أمل لها في مآبه وتبرأت منها عمتها

لانها عدتها مسئولة عن مقتل اخيها . وخبا نور الحب في قلبها فهوت به في ظلمة اليوم ولم يبق لها بعد محبوى الليل ، وقبلات الحب ، سوى الاثم والفزع ، والزراية

وكانت الفتاة قد حملت من عاشقها سفاحاً وليس لها بعد موت قاتلين عائل . فاضطرت ان تترك البيت الذي تربت فيه ، وامست بالحياة في ظلال التشرف ، وراحت تلتمس قوتها من عرق الجبين ، ولكن الناس كانوا في مرية منها فلم يعدوا اليها يداً برّ ، ولا سمحوا عن عينها دمعة ذل

وليلة باتت طاوية وطفلها ، خوت احشاؤها وجف ثدياها . والليل مقرور ، والسماء مكفهرة وليس لها مأوى تلوذ به ، ولا غطاء . حاولت ان تلج الدور فأوصدت دونها الابواب التي لم توصد في وجوه الهررة والكلاب ، ولم يقبل احد منها متاباً . . . حتى الكنيسة طردت منها ولم تجد فيها عاصماً . . . . !

حملت طفلها وانتبذت به حقل قمح حسباناً منها ان سنابله قد تسترها من القرة . . ولكن الرياح عصفت بشدة فلم تجد بدًّا من التحول الى المدينة وما كادت تبعد بضع خطى عن الحقل حتى شعرت يد تضغط على كتفها في عُنف فرفعت طرفها في فرق فاذا بعض الناس ينظرون اليها في شزر وحنق ولما قلبوا الطفل الذي تحمله ذاهلة صاحوا : يا قاتلة !

صرخت رباه ! لقد قتله البرد

واخذت تبكي وتصيح والناس متكون بخناقها يجذبونها الى الحفر

ووجهت اليها تهمة قتل طفلها بتعريضه للبرد القارص . فلم تشأ دفاعاً عن نفسها لانها كانت زاهدة في الحياة وثبتت ادانتها فحكم عليها بالموت حرقاً

وتجمعت أمة من الناس يشهدون مصرع هذه الام المنبوذة التي قتلت طفلها بلا رحمة

وأخذوا يهددونها ويلعنونها ويودون لو تعجلوا الحكم فرتوها بأيديهم قبل ان تأكلها النار

وكان فاوست قد هبط المدينة بعد ان احتبق زماناً ونما اليه ان مرغريت ستحرق . فطار له واقسم ان ينقذها او يكون معها من الهالكين — وأسرع فاوست فألفى الناس قد خطوا الارض كان اليوم يوم حشر ، ورأى النار تحدق بعشيقته فاندفع يشق طريقه اليها غير عابئ ولا وجل وصاح (مرغريت !) ولفظ اليه الناس ساخرين (شيخ مجنون !) وصاحت به مرغريت (مكانك يا أبتاه !)وردد فاوست قولها في عجب (مكانك يا ابتاه ؟) كيف ألم تعرفني ؟

ونظر الى نفسه فراعته لحيته البيضاء المتدلية وبداه اللتان توارى منها الدم

فصرخ كالمجنون وقد قضحه الجزع

— إبليس ! إبليس ! أين ذهبت بشبابي ؟ وأين انت الذي في خبث وكان منهُ عن أم

— كانت مدة العقد يوماً وقد انتهى